البيان والتبيين
للجاحظ

شهرته الجاحظ ، وكنيته أبو عثمان ، واسمه عمرو بن بحر ، ولد بالبصرة عام ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م ، والبصرة يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب ، ومركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى كله . وفيها أمضى طفولة شقية ، فقد توفى والده وهو بعد صغير ، وخلفه بلا ثروة يعيش منها ، إلا أن جو المدينة الثقافى جعل من ذهابه إلى الكُتاب ضرورة ، وفيه أظهر الصبى ذكاء خارقًا ، ونهما حادًا إلى المعرفة ، فلما اشتد ساعده أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم ، يبيع الخبز والسمك فى الأسواق ، ثم يغشى المساجد ، يلقى علماءها يسمع منهم أو يجادلهم ، ويتردد على سوق المربد ، قرب البصرة ، وإليه يختلف الشعراء والخطباء ، وشغله ذلك كله عن طلب العيش فضاقت به أمه ، وذات يوم جاءها يطلب طعامًا فقدمت له طبقًا فيه كراريس ورق وقالت : كُلْ ، سخرية من اشتغاله بالدراسة ، واهتمامه بالقراءة ، وانصرافه عن الكسب . فخرج إلى المسجد ممرورا ، ورآه يونس بن عمران فأدرك حاله وسأله عن شأنه ، ولما وقف على أمره أعطاه خمسين دينارًا فأخذها الجاحظ ومضى إلى السوق ، فاشترى دقيقًا وطعامًا ، وعاد إلى داره مزهوًا ، والحمالون من ورائه ، فلما رأته أمه دهشت ، وسألته : من أين لك هذا ؟ فردّ عليها متشفيًا : من الورق الذى قدمته لى فى الطبق .

كان الجاحظ نهمًا إلى القراءة ، لم يقع فى يده كتاب إلا أتى عليه ، ويكترى حوانيت الورّاقين ويبيت فيها للدرس والمطالعة ، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية ، فأكسبه ذلك معرفة واسعة ، وثقافة منوّعة ، بين دينية وأدبية ، عربية ويونانية ، فارسية وهندية . والظاهر أنه عرف كتاب الخطابة Rhetorique لأرسطو ، أو « الروطوريقا » كما تسميه المصادر العربية الأولى ، بعض المعرفة ، قبل أن تتناوله الترجمة الكاملة . وعاش فى عصر طافح بالقمم فى كل فن ، فعاصر من رجال الفقه والحديث مالكا والشافعى وأحمد بن حنبل والبخارى . ومن الكتّاب

ابن المقفع ، وإبراهيم الصولى ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن الزيات . ومن علماء اللغة الخليل بن أحمد ، ومن الشعراء بشّار بن برد ، وأبا نواس ، ومسلم ابن الوليد ، وأبا العتاهية ، وأبا تمام والبحترى ، وابن الرومى . ودرس على الأصمعى . وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى ، والأخفش .

والتقى بالنظّام ، أبى إسحاق إبراهيم بن سيَّار البلخى ، المتوفى عام ٢٢١ هـ = ٨٤٥ م وتتلمذ عليه ، وأعجب به أستاذًا ، وقال عنه : « الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإذا كان ذلك صحيحًا فهو أبو إسحاق النظام » . وقد اتخذ الاعتزال مذهبًا ، وأصبح أحد ثلاثة من كبار رجال المعتزلة ، وله طائفة خاصة تنسب إليه تُسمَّى « الجاحظية » . يقول ياقوت فى « إرشاد الأريب » : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ وعلى بن عبد الله اللطفى ، وأبو زيد البلخى . والجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وأمّا أبو زيد فيتوافق لفظه ومعناه » .

وإلى جانب العلم المقروء كان صاحب رحلة ، أمضى حياته متنقلا بين البصرة وبغداد ، ورحل إلى دمشق ، وزار أنطاكية ، وثمة احتمال بأنه جاء مصر ، فأكسبه التنقل ، وتنوع البيئة وتباين العيش ، عمقا فى التجربة ، وشمولا فى النظرة ، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس .

كان الجاحظ دميم الخلقة ، جَهم الوجه ، جاحظ العينين ، وبلغ فيهما الغاية ، ومن ذلك لقبه . حتى إن الخليفة المتوكل عندما سمع بمنزلته من العلم والفهم ، استقدمه إليه بسُرَّ مَن رأى (سامراء) ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . وهذه النقائص الجسمية كانت وراء دعابته ومرحه ، وسخريته من نفسه وتندره بأعز أصدقائه ، واستخفّ بالعادات المرعية والآداب السائدة ، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة ، وتخفف من ثقلها ، وأن تقديم الهزل بين يدى الجد أنفع له ، وأدعى إلى إقبال الناس عليه ، فكان لطيف الروح ، فكه المحاضرة ، صادق المواساة ، سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يقبل على الحياة مغتبطًا بها ، متفائلا لا يرى منها إلا وجهها المشرق ، يسجل الفكاهة حتى لو كانت على نفسه ، يقول : ما أخجلنى إلا امرأتان : رأيت إحداهما فى العسكر ، وهو مصيف الخلفاء ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على

طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كُلِي معنا ، فقالت بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فجاءتنى وأنا على باب دارى ، فقالت : بى إليك حاجة ، وأريدك أن تمشى معى لنقضيها ، فمشيت معها حتى أتت بى إلى صائغ يهودى فشارت إلىّ وقالت : مثل هذا ، وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنما أتت إلىَّ بفص ، وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : يا سيدتى ، ما رأيت الشيطان ، فجاءت بك !

وأقبلت الدنيا على الجاحظ ، وأقبل عليها يعب من متعها الحسية ، ولم تجذبه الحياة الخاشعة التقية ، التى كانت تظل جانبًا كبيرًا من مواطنيه وشيوخه ، فأضرب عن الزواج ، وانصرف إلى التسرى ، ولم يعقب ولدًا ، ولم يكن راغبًا فى الإنجاب . سأله **ميمون بن هارون** . حينما رأى رفاهيته : ألك ضيعة بالبصرة ؟ فابتسم الجاحظ وقال : « إنما أنا وجارية لى ، وأخرى تخدمها ، وخادم وحمار . أهديت كتاب « الحيوان » إلى **محمد بن عبد الملك الزيات** فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى **أحمد بن أبى دؤاد** فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « الزرع والنخل » إلى **إبراهيم بن العباس الصولى** فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد » . وكان يحرص دوامًا على أن تكون حياته الخاصة ملكا له ، لا يجاهر بمعصية ، ولا يباهى بخطيئة ، يؤثر الستر ، ويبتعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيبًا ، ويتخذ من مرضاتها مذهبًا ، مادام ذلك لا يحمله على غير ما يرغب فيه من الأفكار والعادات .

لكن **البصرة** ما لبثت أن ضاقت بالجاحظ ، أو لعل الجاحظ أحس أنه أكبر منها ، فرحل عنها إلى **بغداد** ، وفيها مثل دور الطالب من جديد فتردد على مجالس العلماء والأدباء ، ووجد عند شيوخها ما لم يجده عند أساتذته فى البصرة . وفيها استطارت شهرته ، وسمع به **المأمون** فأراد أن يفيد منه ، وكان قد قرأ له كتاب « الإمامة » وأعجب به ، فسأل الجاحظ أن يكتب رسالة على مستواه فى « العباسية » والاحتجاج لها ، وأسند إليه ديوان الرسائل ، فلم يبق به غير أيام ثلاثة ، تركه بعدها هاربًا بعقله وحريته ، لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم

الدواوين وتقاليدها ، وما تقتضيه من وقار مصطنع ، ولم يتحمل دسائس الذين خافوا على مناصبهم من علمه وذكائه ، والذين لا يعملون شيئا ويؤذى نفوسهم أن يعمل الآخرون ، ففارق أكبر وظيفة فى ديوان الخلافة غير آسف . ويصف لنا بدقة جو الوظائف حينذاك ، وحتى أيامنا هذه ، يقول : « فإن أولئك (الموظفين) لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب ، وألفها العرل .. فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص ، خوفًا من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول » .

ثم توثقت صلته بمحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن الزيات ، وزير الخليفة **المعتصم** ، ثم **الواثق** من بعده ، وكان من كبار رجال الأدب والسياسة فكتب له الجاحظ ومدحه ، وأهداه « كتاب الحيوان » وبقى إلى جانبه وزاراته الثلاث ، فلما تُوفى الواثق ، وتولى **المتوكل** ، وكان يكره المعتزلة ، قتل **ابن الزيات** ، وفر **الجاحظ** حتى لا يكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ، ثم قُبض عليه وجئ به مقيدًا ، فقال له أحمد **بن أبى دؤاد** ، وكان القاضى : « والله ماعلمتك إلا متناسيًا للنعمة ، كفورًا للصنيعة ، معددًا للمساوئ ، وما فُتنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك » . فقال له الجاحظ : خفِّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسئ وتحسن أحسن لك من أن أحسن فتسئ ، وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن أبى دؤاد : قبحك الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى . فقال القاضى : جيئوا بحداد . فقال الجاحظ : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك . فجئ بحدَّاد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال اعملْ عَمَل شهر فى يوم ، وعَمَل يوم فى ساعة ، وعَمَل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجزع ولا ساجة [1] !

---

(١) السجة واحدة الساج : شجر عظيم الخشب ، وقد يطلق على الخشب بعامة .

وندع المبرّد صاحب كتاب « الكامل » يصف أيام الجاحظ الأخيرة . وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه ، ووهنت أمامها قواه ، وأصيب بفالج نصفى ، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه ، ومهبط ذكرياته ، يحتمى ببيته وأمسه ، يقول : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها » . ولم يمت الجاحظ ضحية المرض ، وإنما ذهب شهيد الكتب ، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس بينها يقرأ ، فانهالت عليه وقتلته ، ولحدته ميتًا ، بعد أن كانت شاغل حياته ، وسلوة عقله ، عام ٢٥٥ هـ = ٩٦٨ م .

كان الجاحظ نابغة عصره ، وكل عصر ، ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ . وقد صنف أبو حيان التوحيدى كتابًا فى تقريظ الجاحظ ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ ؛ وبين مكانتهم ، ومن تقديره له أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، وقرنه آدم متز فى كتابه « عصر النهضة فى الإسلام » بفولتير Voltaire أديب فرنسا الكبير فى القرن الثامن عشر الميلادى . وبعض كتبه كالبخلاء ، من أوائل المؤلفات التى اضطلع اليونسكو بترجمتها إلى اللغات الأجنبية ، فى مشروعاته التى يضطلع بها ، لتوسيع دائرة التفاهم فى العالم عن طريق الثقافة .

إلا أن التبسط فى الحديث ، والمراوحة فى القول ، والمزاوجة بين الجد والهزل ، كانت تثير عليه المحافظين وأهل الوقار ،وأوجز ابن قتيبة ، وهو خير من يمثلهم ، رأيه فى مصنفات الجاحظ ، معترفًا بعلمه ، ضائقًا بمنهجه : « هو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يحمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله ﷺ ، ويتبعه : قال الحمار ، وقال

إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويجلُّ رسول الله ﷺ عن أن يذكر في كتاب ذكرا فيه ، فكيف من ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتابًا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ؛ فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين . ونجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود وأنه كان أبيض فسوّده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا .. وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » وعابه **أبو الفضل الهمذانى** بأن كلامه سهل ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأنه « منقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نفُور من معتاصه يهمله » . والحق أن ابن قتيبة والهمذانى يقفان وحدهما فى هذا الجانب ، فقد استحدث الجاحظ لونًا من التعبير نسيج وحده ، ووليد عصره ، إن ضاقت به قلة ، فالكثرة الغالبة راضية عنه ، ومِن القلة الضائقة به من يجد فى قراءة كتبه متعة وفائدة وجمالا .

أحاط **الجاحظ** بأكثر ما عرف على أيامه من علوم ومعارف ، ولم يترك علمًا إلا وضع فيه مؤلفًا ، قد يكون كتابًا ضخمًا أو رسالة صغيرة ، وعالج قضايا لم يفكر فيها أحد قبله ، فبحث فى طبائع الأشياء والحيوان والنبات والمعادن ، وأقام علمه على أساس من المشاهدة والملاحظة والتجربة ، وكتب فى المعلمين ، وبنى هشام ، واللصوص ، وصفات الله ، وكيد النساء ، وأربت مؤلفاته على ثلثمائة وخمسين ، بين كتاب مطوَّل ورسالة مختصرة ، رأى **سبط بن الجوْزى** ، المتوفى عام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٥ م ، أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد .

لم تصنا **مؤلفات الجاحظ** كاملة ، وضاع معظمها فى عهد مبكر ، فنحن لا نعرف شيئًا مثلا عن كتابه « نظم القرآن » إلا ما أورده هو عنه فى كتابه « الحيوان » وما لدينا من بقيَّة مخطوطاته تتقاسمه خزائن الكتب فى العالم بأجمعه ، وقد طبع معظمها ، وبقيت منها قلة لن يبعد بها الزمن حتى تطبع ، فأدب الجاحظ يجد من الباحثين عناية ومن القارئين إقبالا . ويطول بنا تعداد رسائله المطبوعة ،

أما كتبه فأشهرها : البخلاء ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، وهذان موضوع دراستنا منها .

* * *

ألف الجاحظ **البيان والتبيين** فى أخريات حياته ، حين علت به السن وقعد به المرض ، وأهداه إلى القاضى **أحمد بن أبى دؤاد** ، وإذا عرفنا أن صلته به توثقت بعد مقتل **ابن الزيات** عام ٢٣٣ هـ = ٨٤٧ م ، وأن ابن أبى دؤاد صُرِف عن القضاء لفالج أصابه ، وأن الجاحظ لزمه فى هذه الأيام حتى وفاته عام ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م يمكن القول إن كتاب « البيان والتبيين » اتخذ شكله النهائى خلال هذه الأعوام ، وطبقًا لرواية **ياقوت** كان لدى الناس فى عصره **نسختان من الكتاب** ، الثانية منهما أصح من الأولى وأجود ، وفيما يبدو أعاد الجاحظ صياغة الأولى رغم كراهيته تصحيح مؤلفاته ، فكانت الأخرى بمثابة الطبعة الثانية للكتاب فى عصرنا الحديث ، تحمل آخر أفكار المؤلف وتصويباته ، وارتأى المستشرق الفرنسى **كليمان أوار** Clement Huart (١٨٥٤ - ١٩٢٧ م) فى كتابه : الأدب العربى La Litteratuer Arabe أن أصل عنوان الكتاب « البيان والتّبيُّن » لأن كلمة « التبين » تشير إلى النقد والتحقيق أكثر من كلمة « التبيين » وتابعه فى رأيه بعض الباحثين العرب المحدثين . ولم يسق المستشرق الفرنسى بين يديه حججا تعتمد على النقل ، مكتفيًا بأدلته العقلية ، وفيها من التمحل أكثر مما فيها من العلم ، لأن عناوين الكتب لا يبحث فيها عما هو أولى وأنسب ، وإنما نلتزم بإزائها النص والرواية ، وبخاصة إذا كانت تدعمها شهرة مستفيضة ، وما بين أيدينا من مخطوطات الكتاب يجعل العنوان الذى عُرِف به إن لم يكن يقينا قاطعا ، فهو أقرب إلى اليقين .

لدينا من **مخطوطات الكتاب** ست فيما أعلم ، أقدمها فى مكتبة فيض الله بإستنبول ، برواية **أبى جعفر البغدادى** ، بخط أندلسى نفيس جدا فى ١٩٩ ورقة ، كتبها لنفسه محمد بن يوسف بن حجاج بن زهير اللخمى ، تفضلا عن نسخة أبى ذر بن محمد بن مسعود الخشنى ، وعارض ما كتب على الأصل ، هو يقرأ وأبو ذر يمسك كتابه ويصحح له . وكتب أبو ذر نسخته نقلا عن نسخة أبى

جعفر اليقدادى نفسه ، وذلك بمدينة سبتة[١] وشهد بذلك الخشنى فخطّ بيده : « أكمل لفقيه الحسيب الأديب أبو عمرو محمد بن يوسف بن حجّاج اللخمى .. وفقه الله ، جميع كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، وعرض كتابه هذا بكتابى ، وفسرتُ له ما أشكل من معانى نثره ونظمه ، وشرحتُ له غريب لغته ، وبيّنتُ له مواقع بلاغته ، حسب اعتنائى بهذا الكتاب ومزاولتى له ، فكمّل قراءته علىّ فى العشر من ذى الحجة سنة ٥٨٧ هـ = (ديسمبر ١١٩١ م) والحمد لله حق حمده . قاله وكتبه بخطه أبو ذرّ بن محمد بن مسعود الخشنى فى التاريخ المذكور » .

والمخطوطة الثانية توجد فى مكتبة كوبريلى بإستنبول أيضًا ، وهى فى جزأين تنبّه فى آخر كل جزء منهما على أنه قد انتهى وابتدأ الذى يليه ، والجزء الأول فى ٣٥٦ صفحة ، والثانى فى ٣٥٥ ، ومسطرتها سبعة عشر سطرا وفى نهايتها : « كمل السفر الثانى ، وبتمامه تمّ الكتاب بأسره بفضل الله وعونه . والصلاة على سيدنا محمد وآله . فى الجمعة سابع المحرم من سنة أربع وثمانين وستمائة (= مارس ١٢٨٥ م) علّقه الفقير إلى الله أحمد بن سلامة بن سالم المعرى » .وتوجد مصوّرة فى دار الكتب المصرية فى أربعة مجلدات ، تحت رقم ٤٣٧٠ أدب .

والثالثة نسخة دار الكتب المصرية ، وتوجد برقم ٤٧١ أدب ،وهى فى مجلد واحد يقع فى ٧٠٠ صفحة ، ومسطرتها عشرون سطرًا ، ومكتوبة بخط فارسى جميل وليس بها ضبط ، وكتب فى صدرها : (فيما صار نسخه بالمدينة المنوّرة على ذمة « الكتبخانة الخديوية » ومضاف فيماه مايو ١٨٨٢) وكلمة « فيماه » مكونة من « فى » العربية ، و « ماه » الفارسية التى بمعنى شهر ، ويقابل من التاريخ الهجرى عام ١٢٩٩ . وعنوانها : « كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن (يحيى) الجاحظ وهو كتاب جيدّ النظم والنثر الموضوع على منوال كامل المبرّد بل يفوق عليه حسنا ، وبلاغة » وكلمة « يحيى » تحريف لكلمة « بحر » أما إشارته إلى « كامل المبرّد » فخطأ تاريخى ، لأن الجاحظ سبق المبرد كتابا وحياة رغم تعاصرهما ، ولم يشر ناسخها إلى الأصل الذى نقل عنه .

(١) سبتة ceuta مدينة أندلسية قديمة ، تقع فى المغرب ، على شاطئ البحر الأبيض ، قريبًا من طنجة ، وهى إحدى مدينتين مأهولتين بالإسبان ، وما زالتا تتبعان إسبانيا حتى الآن .

والنسخة الرابعة فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٨٧٢ أدب ، وهى فى مجلد واحد يقع فى ٧٥١ صفحة ، ومسطرتها واحد وعشرون سطرًا مكتوبة بالخط المعتاد ، وغير مضبوطة ، وأتمّ نسخها محمد سليم من أصل لم يشر إليه ، فى يوم الخميس المبارك الموافق ١١محرم الحرام سنة ١٣٠٩ ثلثمائة وتسعة بعد الألف (= أغسطس ١٨٩١) وعليها أثر تصحيحات بقلم العلامة محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ، وألصق بآخرها ورقة بها تعليقات فهرسية لمواضع متفرقة من الكتاب بخطه أيضًا .

والمخطوطة الأخيرة توجد فى المكتبة التيمورية برقم ٤٨٩ أدب ، فى مجلد واحد ، تبلغ صفحاته ٥٨٨ صفحة ، ومسطرتها تسعة عشر سطرًا ، وكُتبت فى خط فارسى معتاد ، وبهوامشها تعليقات كثيرة بخط الناسخ ، وهى مجهولة التاريخ وكُتب فى صدرها أنها من كتب الفقير عبد السلام المويلحى فى ٢ رجب ١٢٨٥ (= أكتوبر ١٨٦٨ م) ، وبها عدة أسقاط ، من مواضع متفرقة ، تبلغ نحو ٢٠ صفحة ، قيد مواضعها فى أوّل الكتاب المغفور له أحمد تيمور باشا .

تُرَى هل هذا كل ما وصلنا من مخطوطات « البيان والتبيين » أشك فى ذلك كثيرًا ، فالكتاب كان معروفًا على امتداد العالم العربى كله ، وأتصوّر أن عددًا من مخطوطاته مازال دفينًا فى خزائن الكتب العامة ، أو فى المكتبات الخاصة وليس من سبيل إلى معرفة ما تحتويه ، والأمر يحتاج إلى مزيد من الجهد فى تتبع آثار الجاحظ ، لتعود بين أيدينا نصوصًا مقوّمة كما صاغها صاحبها ، بلا تحريف ولا تصحيف ولا إسقاط .

* * *

دأب الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، وغيره من مؤلفاته ، أن يرسل نفسه على سجيتها ، لا يتقيد بنظام يترسمه ، ولا بمنهج يلتزمه ، يبدأ الكلام فى قضية ثم يدعها أثناء ذلك ليدخل فى قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف ، حتى ليصعب الاهتداء فى جنبات مؤلفه إلى الفكرة والرأى لمن يبحث عنها ، وكان الجاحظ يشعر بذلك ، ويعتذر عنه أحيانًا . فإذا تكلم عن « البيان » بعد حديث طويل عن العجز والعىّ وحال قريش فى بلاغة المنطق ، مهدّ له بقوله : « كان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول الكتاب ، ولكنّا أخرناه لبعض التدبير » . وأدى ذلك إلى تكرار

النصوص ، والحديث عن الموضوع الواحد فى أكثر من مكان ، وقد يكون التكرار فى « الباب » نفسه ، وقد يكون فى الكتاب ، فى الجزء نفسه أو فى جزء آخر منه ، كالحديث عن البلغاء وأخبارهم ، والخطباء ومواقفهم ، والحمقى ونوادرهم ، وعلل الجاحظ استطراده بأنه صنع ذلك ليدفع السأم عن نفس القارئ ، وعلله الآخرون بأنه جاء نتيجة علمه الكثير يتدافع عليه ، وأراه وليد تكوين الجاحظ الثقافى ، القائم على معرفة كل شىء ، ومن أن الكتاب لم يُؤلف مرة واحدة ، وإنما كتب فصولا متفرقة ، فى أزمنة متباعدة ، فاستحال أن يربطه خيط فكرى واحد .

وعلى غير عادة معاصريه واجه موضوعه مستعيذًا من التكلّف لما لا يحسن ، ومن العجب بما يحسن ، ومن السلاطة والهذر ، ومن العِىّ والحصر ، وكانت هذه الاستعاذة مقدمة الكتاب ، وكانت موضوعه ، فلم يقدم بين يدى كتابه منهجا التزمه ، ولا خطة شرحها ، ولا قصدا حدّده .

تحدَّث الجاحظ تحت عناوين ثلاثة ، **البيان والبلاغة والخطابة** ، عن قضية واحدة هى الكلام الجيد ، خطبة أو جدلا ، أو حوارًا أو قصصًا .

فالبيان عنده كل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، فبأى شىء بلغتَ الأفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان . وجميع أصناف الدلالات على المعانى ، من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد :

اللفظ ، والإشارة ، والعقد[1] ، والخط والحال .

والبلاغة صحيح الأقسام ، واختيار الكلام ، وحسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة ، وهى وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وكل من أفهمك حاجة من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق ، وزيْن ذلك كله ، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلّة ، واللهجة نقيّة ، فإن جامع ذلك السنّ والسمت والجمال وطول الصمت ، فقد تمّ كل التمام ، وكمل كلّ الكمال .

---

(١) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له حساب اليد .

وفى الخطابة ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى . ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .

وقف الجاحظ كتابه على الأدب الشفاهى بألوانه المتعددة ، وإذا عرض لغيره ففى مقام الاستدلال أو المقارنة ، ولم يقصر بحثه على الأدب وحده ، وإنما تعداه إلى الأديب نفسه ، فدرسه تشريحًا وثقافة وتاريخًا ، فأفاض القول فى الخطابة ، وما تتطلبه من الجهر بالقول وترفيع الصوت ، وفى الدمامة وتأثيرها فى قدر الخطيب ، وفى اكتمال أسنانه ونقصها أو سقوطها ، وسعة شدقه أو ضيقه ، وأثر ذلك فى مخارج حروفه ، وما يجب أن يكون عليه أثناء الكلام ، من استخدام الإشارة ، وارتفاع الصوت ، أو سكون الجوارح وهدوء النبر . وعدة الخطيب : « شدّة العارضة ، وقوة المنة ، وظهور الحجة ، وثبات الجنان » . وخص العصا كلازمة للخطيب بفصل خاص .

وعَبرْ ذلك كله ، قدم لنا معلومات ضافية ، عن البلغاء والخطباء والفقهاء والأمراء ، وهو لا يهتم بتراجمهم الشخصية وأخبارهم ، بقدر ما يركز على تصوّرهم للبلاغة ، أو تفوّقهم فى مجال القول . وبسط القول عن علماء المعتزلة فما منهم إلا وأورد عنه خبرًا ، أو ذكر له نادرة ، كواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى بن حاضر ، وبشر بن المعتمر ، وعرض فى حياد للصراع الذى كان بين بشار بن برد الشاعر وواصل بن عطاء . وترجم لبعض علماء الخوارج وخطبائهم فى إيجاز ، كالقاسم بن عبد الرحمن ابن صُديقة ، والضحاك ابن قيس ، وعمران بن حطان ، ولم يتردد فى الثناء على من عرف منهم ، فيقول عن أستاذه أبى عبيدة معمر بن المثنى ، مولى تيم بن مرة : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه » ، وأورد لخطبائهم نصوصا متعددّة .

والبيان ليس خطابة وحسب ، فقد يكون رسائل ووصايا ، ويخيل إلىّ أن الجاحظ وهو يتكلم عن الأولى ، كان يضع عينه على الرسائل الشفوية أيضا ، وقد يكون حُكما فى منافرة ، أو فصلا بين خصوم ، أو وعظا لقوم ، أو قصة تحدَّث فى جمع ، فاعتنى بذلك كله ، وأورد منه نصوصًا كثيرة ، وعرض لمشاهير القصاص

والنساك والزهاد ، والكهان ، وكل حديثهم أدب مسجوع .

ولم يخص الشعر كفن مستقل إلا بصفحات قليلة ، وخص ما قيل منه فى مدح الخطب واللسن بباب مستقل ، ويورد قول أبى عمرو بن العلاء : « إن الشاعر كان مقدّم فى الجاهلية على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويَفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » ويحتج لقلة النثر الجاهلى : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره » ولا يعنى ذلك أن الشعر فى كتابه قليل ، فهو لا يكاد يبدى رأيًا ويورد خبرًا إلا وشحه بالبيت أو البيتين أو القصيدة كاملة .

وإذا كانت المقابلة تزيد الأمر وضوحًا ، فلا يعرف الشىء إلا قرين نقيضه ، تحدّث الجاحظ عن الصمت والعىّ ، والحمق ، والتشادق والإغراق والفضول ، واللحن ونوادر الأعراب والألغاز ، والمجانين ، وأخطاء العلماء ومزدوج الكلام والإيماء ، وهو حديث فضلا عن تجليته لقضية البيان ، كما يراه الجاحظ ، فيه ترويح عن نفس القارئ له ، ونفع له فى بيانه وعبارته كيلا يضلّ السبيل .

وكانت دراسة المسلمين للحديث فى عصر الجاحظ وبعده ، قائمة على نقد الإسناد ، دون تعرض للمتن نفسه ، أما الجاحظ فخرج على هذه القاعدة ،وعندما روى حديث يمس « البيان » رفضه ورد عليه : زعمتم أن رسول الله ﷺ قال : « شعبتان من شعب النفاق : البذاء والبيان . وشعبتان من شعب الإيمان : الحياء والعى . ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ورسول الله يحث على العى ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان ، وإنما وقع النهى على كل شىء جاوز المقدار ، ووقع اسم العى على كل شىء قصَّر عن المقدار ، فالعى مذموم ، والخطل مذموم ، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالى » .

وفى الكتاب مادة موفورة لدراسة عادات وتقاليد المجتمع الإسلامى فى

بغداد والبصرة على أيام الجاحظ ، لأنه يغترف مما حوله ، ويلتزم الدقة فى إيراده ، حتى الألفاظ العامية يوردها كما هى ، وشكا من أن الرسم العربى غير كاف لتصوير كل الأصوات التى يريد كتابتها ، فهو مصدر لعالم اللغة ، حين يبحث فى تطور الكلمات ، وتوزّع اللهجات ، وظواهر اللحن ، وخصائص القبائل ، وفروق الدلالات ، والحروف الأكثر دورانًا ، والألفاظ الأكثر تو فقًا ، وتطور للمصطلحات فى مختلف مجالات العلوم ، ويورد قصة الأعرابى وقد سئل : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إنى أذًا لرجل سوء ، فقيل له أتجرّ فلسطين ؟ أجاب : إنى لقوى ، لأنه لم يعرف من الهمز والجر غير معناهما اللغوى .

وضمَّن الكتاب **بعض خواطر معاصريه وسابقيه فى الشعر العربى** ، وهى خطرات ذهن ، ولفتات فيها من الذكاء واللماعية ، أكثر مما فيها من التأمّل والقاعدة ، ولا تجد فى « البيان والتبيين » أية إشارة تدل على أنه كان يعنى « بالبلاغة » المعنى الذى ستعرف به فيما بعد عصره بقليل ، ومع أنه استخدم فى الكتاب كلمات : الإيجاز والحذف والسجع والازدواج والتشبيه والإطناب إلا أن حديثه عنها كان حديثًا فضفاضًا ، ومفهومه لها مرتبط كما قلنا بلون معين من القول ، وأظن أن أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة جانب الصواب حين قرر أن الجاحظ « واضع أساس البلاغة العربية ، وواضع بعض مصطلحاتها ما فى ذلك ريب[1] » .

لكن **استطراد الجاحظ** وتَرسله إذا أخذ بلب القارئ ، فإنه فى الوقت نفسه ، **يجعل مهمة الباحث عسيرة** ، لأن معرفة ما فى الكتاب وما يراد من روايته ، وهى جزء من فهم النص ، تتطلب أناة فى القراءة ، ومعاودة لها ، وتحليلا دقيقًا لمدلولات كل لفظ ، وأيًّا ما كان الأمر فقد أصبحت هذه الطريقة جزءًا من الجاحظ وأدبه ، وانعكاسًا لنفسيته ومزاجه ، وليس بوسعنا الآن غير أن نقول : « لو سلك طريقًا آخر أكثر تنظيمًا ، لكل أفضل » وقد حاول كثيرون تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها من الاستطراد ، وما حوته من الاستشهاد ، فانتهى بهم الأمر إلى

---

(١) ابراهيم سلامة : بلاغة أرسطو بين لعرب واليونان ، ص ٦٥ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م .

العجز ، أو يعود الكتاب فى أيديهم جثة هامدة ، لا شىء فيها من روح الجاحظ وفنه .

كان كتاب « البيان والتبيين » موضع تقدير القدامى ، فقال عنه المسعودى المؤرخ ، إنه أشرف ما كتب ؛ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغُرَرَ الأشعار ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به » وكان من الكتب المحببة إلى أبى بكر الخوارزمى ، المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م ، يقول : « وضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان ، وعن يسارى كتاب « البيان والتبيين » ، وبين يدىّ فصول بزرجمهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب بن عباد » .

وأوجز بو هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » فضائل الكتاب وعيوبه ، وهو يتحدث عن كتب البلاغة فقال : « وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفائدة ، جمّ المنافع ، قد اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلّا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفّح الكثير » . وجعله ابن خلدون واحدًا من أركان الأدب الأربعة : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرّد ، والأمالى لأبى على القالى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وقد أفاد منه كثيرون ممن جاءوا بعده فنقل عنه ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » والمبرّد فى « الكامل » ، وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » ، وأبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » ، والحصرى فى « زهر الآداب » ، وابن رشيق القيروانى فى « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

* * *

وفى العصر الحديث لقيت كتب الجاحظ بعامة و « البيان والتبيين » بخاصة ، إقبالا من القراء ، فكانت من أوائل المطبوعات ، فطبع « البيان » للمرة الأولى ، فى مجلدين خلال الأعوام ١٣١١ - ١٣١٣ هـ . ونشر للمرة الثانية فى ثلاثة

مجلدات ، بإشراف الأستاذ **محب الدين الخطيب** ، عام ١٣٣٢ هـ . وقام الأستاذ **حسن السندوبي** بتحقيقه ونشره فى ثلاثة مجلدات ، وظهرت الطبعة الأولى عام ١٣٤٥ هـ ، والثانية ١٣٥١ هـ ،وبذل جهدا مشكورًا فى تحقيق نصّه ، والتعريف بأعلامه ، وألحق به بعض الفهارس .

وأخيرا قام الأستاذ **عبدالسلام هارون** بتحقيق الكتاب ، مستخدمًا المخطوطات التى تحدثنا عنها قبلاً ، باستثناء المخطوطة الأولى ، « وعَنُى بضبط الكتاب محققًا ما به من الألفاظ الغريبة والكلمات الفارسية والبصرية ونحوها ، كما عُنى بتحقيق الأعلام وترجمتها على ما فى ذلك من عُسر شديد وجهد جهيد » كما حقق نصوصه وخرّجها ، ونسب الشعر إلى قائله ، وأبقى تقسيمه كما صنعه الجاحظ ، لم يحدث فيه تغييرًا ، ولم يضف إليه شيئ من العناوين . وصدرت الطبعة الأولى منه ، فى أربعة مجلدات ، عن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » عام ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م ، وقد ألحق بكل مجلد فهرسًا للأعلام المترجمة ، وفى آخر الكتاب قدَّم فهارس تفصيلية ، للخطب ، والرسائل والوصايا ، والأشعار ، والأرجاز ، والأمثال ، واللغة ، والأعلام ، والبلدان والمواضع والمياه ، وأيام العرب ، والحضارة ، والكتب .

○ **مختارات من « البيان والتبيين » :**

بين الكُمَيْت والطرمَّاح[1]

قال أبو عثمان الجاحظ : ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرمّاح ، وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرمّاح قحطانيًّا عصبيًّا . وكان الكميت شيعيًّا من الغالية ، وكان الطرمّاح خارجيا من الصُّفْريَّة . وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرمَّاح يتعصّب لأهل الشام . وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صُرَمٌ ولا جفوة ولا إعراض ، ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه . ولم ير الناس مثلهما إلّا ما ذكروا من حال

---

(١) هذا العنوان ، وكل عناوين المختارات ، من وضعى أنا .

عبد الله بن يزيد الأباضى ، وهشام بن الحكم الرافضى ، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة .

كل حرفة وتمامها !

وقال إبراهيم بن هانئ : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخًا بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنّى أن يكون فاره البرْذَون ، برّاق الثياب ، عظيم الكبر ، سيِّئ الخُلُق . ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميًا ، ويكون اسمه أذين أو شَلُومَا ، أو مازيار ، أو أزدا نقاتار ، أو ميشا ، ويكون أرقط الثياب مختوم العُنُق . ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيًّا ، ويكون الداعى إلى الله صوفيا . ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع ، عظيم الرأس . لذلك قال ابن سنان الجديدى ، لراشد بن سَلَمة الهُذلى : « ما أنت بعظيم الرأس ، ولا ثقيل السمع ، فتكون سيدا ، ولا بأرسح فتكون فارسًا » .

خطبة أبى حمزة الخارجى[1]

دخل أبو حمزة الخارجى مكة – وهو أحد نسّاك الإباضية وخطبائهم ، واسمه يحيى بن المختار – فصعد منبرها متوكئًا على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ولا يتقدّم إلا بإذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله كتابًا بين له فيه ما يأتى وما يتقى ، ولم يك فى شك من دينه ، ولا فى شبهة من أمره ، ثم قبضه الله وقد علم المسلمين معالم دينهم ، وولىّ أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاّه رسول الله أمر دينهم ، فقاتل أهل الردّة وعمل بالكتاب والسنة ، فمضى لسبيله رحمة الله عليه .

.....

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال : .

---

(١) هذ العنوان من عمل الجاحظ .

يا أهل الحجاز ، أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ؟! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا . أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضرّكم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق كأن زفير جهنم بين أذنيه . موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فُوّقت ، والرماح قد أُشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطّت عليه طيُر السماء ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . آه آه آه ، ثم بكى وعـل .

متفرقات

وقيل لمحمد بن عمران : ما المروءة ؟ قال : أن لا تعمل في السرّ شيئًا تستحي منه في العلانية .

وقيل للأحنف : ما المروءة ؟ قال : العفّة والحرفة .

وقال طلحة بنُ عبيد الله : المروءة الظاهرةُ الثياب الطاهرة .

وقيل لأبي هريرة : ما المروءة ؟ فقال : تقوى الله ، وإصلاح الصنيعة ، والغداء والعشاء بالأفنية .

ونظر بكر بن الأشعر ، وكان سجّانا ، مرة إلى سور دار بجالة بن عبدة ، فقال : لا إله إلا الله ، أي سجن يجيء من هذا .

وقال إنسانٌ صيرفيّ : باعني إنسان عشرين جريبًا ، ودانقين وصفًا ذهبا .

قال : ونظر عثمان بن عفان رحمه الله إلى عير مقبلة ، فقال لأبى ذرّ : ما كنت تحب أن تحمل هذه ؟ قال أبو ذرّ رجالا مثل عمر .

وقيل للزُّهرى : ما الزهد فى الدنيا ؟ فقال : أما إنه ليس بشعث فى اللمّة ، ولا قشِف الهيئة ، ولكنه ظَلْف النفس عن الشهوة .

وقيل له أيضًا : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك .

قالوا ومر المسيح عليه السلام بحلَق بنى إسرائيل فشتموه ، فكلما قالوا شرا قال المسيح ﷺ خيرًا ، فقال له شمعون الصفىّ : أكلما قالوا شرًّا قلتَ لهم خيرًا ؟ قال المسيح : « كل امرئ يعطى مما عنده » .

وقال بعضهم : قيل لامرئ القيس بن حُجر : ما أطيبُ عيش الدنيا ؟ قال : بيضاءُ رعيوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة .

وسئل عن ذلك الأعشى فقال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية .

وقيل سئل ذلك لطرفة فقال : مطعم شهى ، وملبس دَفى ، ومركب وطىء .